الشيخ محمد فاضل بن الأمين

مؤسس الطريقة القادرية الفاضلة

د . سعدبوه سيدي أستاذ-باحث، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة شيخ أنتا جوب

بدكار/السنغال

مقدمة

إذا كان التاريخ هو العلم الذي يدرس الناس والمجتمعات والأحداث الماضية ففي طياته شخصيات بارزة لن تنمحي أسماؤهم من صفحاتها ولا يمكن أن ينساهم العالم؛ لأن التاريخ سجل أسماءهم بحروف ذهبية لما قاموا به من دور كبير وإنجازات عظيمة. فمن بين هؤلاء رجل عرّفه أحد مترجميه أبوبكر بن أحمد المصطفى قائلا: إنه هو القطب الرباني، الولي الصالح، ذو البركات الباهرات، والكرامات الظاهرات، شيخ الأشياخ السادات، مَن ظهرت بركته شرقا، ومناقبه في الناس عجما وعربا، شيخ المحققين ومربي السالكين، أبو المواهب السنية

والأخلاق المرضية :**الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين**[1]. وقال عنه صاحب أشهر ترجمته "الضياء المستبين" محمد فاضل بن الحبيب اليعقوبي: إن هذا الشيخ خلقه القرآن يرضى برضاه ويغضب بغضبه أي أنه متأدب بآدابه ممتثل لأوامره يحب ما يحب ويكره ما يكره[2]، كما قال عنه أيضا محمدن ولد امد في تعريفه بالشيخ: «وللشيخ محمد فاضل اليد الطولى في العلوم كلها فقها وحديثا وقرآنا ونحوا ولغة ومنطقا وبيانا وهندسة وغير ذلك»[3].

ولد الشيخ محمد فاضل ولد الشيخ محمد فاضل بن مامين عام 1797 م بالحوض الشرقي[4]في موريتانيا، ونشأ في بيت صلاح وفضل امتاز بالعلم والزهد والورع والشرف، وحفظ القرآن ومبادئ العلوم منذ نعومة أظفاره قبل أن يتلقى

---

[1] – أبو بكر بن المصطفى، *منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور*، دراسة وتحقيق: د.محمد الأمين بن حمادي (موريتانيا خلال القرن التاسع عشر 1785-1908)، ليون، أنيس إديسيون ENS Editions، 2011، ص188.

[2] – محمد فاضل بن الحبيب، *كتاب الضياء المستبين في كرامات شيخنا: الشيخ محمد فاضل بن شيخنا الشيخ مامين*، مخطوط (مطبوع)، د.ط و د.ت ، ص25.

[3] – محمدن ولد امد، تاريخ موريتانيا الإيجابي (الشيخ محمد فاضل بن مامين)، صحيفة نواكشوط، صفحة انترنت عنوانها: https://nouakchot.com. نشرها ناقلها عبر فيسبوك في 15/10/2015، لا يوجد فيها ترقيم للصفحات ولا تاريخ للصحيفة.

[4] – تقع ولاية الحوض الشرقي في الناحية الجنوبية من موريتانيا، عاصمتها هي مدينة النعمة. صفحة انترنت عنوانها: https://ar.wikipedia.org.

عند أبيه وشيخه تكوينَه الروحي ويتسلم مفاتيح العلوم لدى جماهير العلماء والأولياء لتعيينه قائدا لهم. وبعد تسلم إجازته على يد أبيه أسس الطريقة الفاضلية إحدى شعبتي الطريقة القادرية الكبيرتين الأساسيتين في إفريقيا جنوب الصحراء. وتتميز الطريقة القادرية الفاضلية الصوفية بتجديدات غير مسبوقة أخذت بعين الاعتبار لون الطبيعة الصحراوية القاسية وطبيعة الناس الذين يعيشون فيها أي الزنوج. الأمر الذي جعل الفاضلية رمزا حيويا يتبنى مراعاة الضرورات القائمة على التيسير والتسامح ونبذ التعصب والتعسير والتطرف في تعاليمه وفتاواه التي تستند خاصة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[5]. فنجحت في ذلك تعاليم الشيخ وفتاواه المستنبطة من الكتاب والسنة نجاحا باهرا وانتشرت طريقته انتشارا واسعا في الحوض وخارجها من المناطق المجاورة في السنغال وما حولها خاصة بزعامة ابنيهما المشهورين: سعد أبيه وماء العينين.

لكن، رغم الأهمية البالغة التي تتجلى في شخصية محمد فاضل وتعاليمه وفتاواه الخارقة للعادة في ذلك العصر، لاحظنا أنه لم يأخذ حقه الكافي من البحوث والدراسات العلمية إن لم يكن مجهولا من قبل الجماهير. وبناء على ذلك، ننوي،

[5]- سورة الحج، الآية 78.

من خلال هذا البحث، دراسة هذه الشخصية تحت العنوان: "**الشيخ محمد فاضل بن الأمين: مؤسس الطريقة الفاضلية**"، وذلك لإلقاء الضوء على تعاليمه وفتاواه التي ما زلنا في حاجة حائجة إليها في هذا الزمن الذي يطغى عليه ظواهر عصرية كالتطرف الديني والغزو الثقافي والعنف بجميع أشكاله باسم العولمة والحرية وحقوق الإنسان بواسطة وسائل الإعلام والتواصل الحديثة.

وفيما يخص منهجَنا، فقد خصصنا حظا كبيرا لـــ "كتاب الضياء المستبين في كرامات شيخنا: الشيخ محمد فاضل بن شيخنا الشيخ مامين" لمحمد فاضل بن الحبيب اليعقوبي، لأنه أهم الكتب في ترجمة الشيخ. قد ألفه صاحبه في حياة شيخه وكان صاحبا له وشاهد عيان لكثير من الأحداث التي نقلها، كما اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي محاولا وصف المعلومات والأحداث قبل مقارنتها لاستخلاص نتائج تفيد القراء والباحثين.

أما خطة البحث فتدور حول فصلين اعتمادا على صيغة الموضوع، أولهما يتناول أصول الشيخ ودراسته وتندرج تحته ثلاثة مباحثَ تتمحور بالترتيب حول اسمه ونسبه، مولده ونشأته، تكوينه وشيوخه، ثانيهما يدرس الطريقة الفاضلية ويتفرع منه ثلاثة مباحث أيضا تتعلق بتأسيس الطريقة الفاضلية، وصفات الشيخ وتعاليمه، ونشر الطريقة.

الفصل الأول: أصوله ودراسته

لمعرفة شخصية بارزة ما معرفةً جيدة، من المهم جدا أن نتعرف أولا وقبل كل شيء على أصوله ودراسته وشيوخه لفهم كيفية تكوين هذه الشخصية إما تربية وسلوكا وفكرا وروحا، إلخ. فمن أجل ذلك، سنذكر، من خلال هذا الفصل، اسم الشيخ ونسبه كما نتطرق بعدُ لمولده ونشأته قبل أن نتناول دراسته وشيوخه في نهاية المطاف.

المبحث الأول: اسمه ونسبه

للتطلع على اسمه فلنستمع إلى أبي بكر بن المصطفى المحجوبي في كتابه "منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور" وهو يعرفه قائلا: «هو القطب الرباني والغوث الصمداني الولي الصالح، ذو البركات الباهرات، والكرامات الظاهرات، شيخ الأشياخ السادات، مَن ظهرت بركته شرقا، ومناقبه في الناس عجما وعربا، ساقي المريد، وعمدة أهل التوحيد، شيخ المحققين، ومربي السالكين، أبو المواهب السنية، والأخلاق المرضية، والكرامات الظاهرة، السيد الأسنى، والذخيرة الحسنى: الشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين»[6].

[6]- *منح الرب الغفور*، ص188.

أما نسبه فينتمي الشيخ محمد فاضل إلى عشيرة آل الطالب المختار من القلاقمة، فهم شرفاء حسنيون من ذرية إدريس بن عبد الله الكامل. ويرتفع نسب الشيخ محمد فاضل إلى البيت النبوي، فهو "الشيخ محمد فاضل بن الشيخ محمد الأمين بن الطالب أخيار بن الطالب محمد بن الطالب اجيه المختار بن الطالب الحبيب بن سيد محمد بن سيدي يحى بن سيدي علي بن شمس الدين بن يحى الكبير القلقمي بن سيدي محمد بن سيدي عثمان بن مولاي أبي بكر بن سيدي يحى بن مولاي عبد الرحمان بن أوران بن مولاي أتلان بن أجملان بن إبراهيم بن ملاي مسعود بن ملاي عيسى بن ملاي عثمان بن ملاي إسماعيل بن ملاي عبد الوهاب بن ملاي يوسف بن ملاي عمر بن يحى بن عبد الله بن ملاي أحمد بن إدريس الصغير بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بن علي كرم الله وجهه"[7]. هكذا أورده مترجم حياته الشيخ محمد فاضل بن الحبيب اليعقوبي مؤكدا قائلا: «هكذا رأيت بخط شيخي الشيخ محمد فاضل وقال إنه هكذا وجد بخط آبائه»[8].

[7]- *كتاب الضياء المستبين*، ص19.

[8]- المرجع نفسه، ص 19.

وتجدر الإشارة إلى أن نسبه الشريف كان موضوع نقاش كبير، وهجوم ورد، بين أهل محمد فاضل وقبائل من جهة وبين أولئك وعلماء في الحوض من جهة أخرى. فعلى سبيل المثال، حسب بول مارتي في كتابه "دراسات حول الإسلام في موريتانيا": «إن معظم قبائل الزاوية الموريتانية في الحوض يقولون إن أهل الطالب مختار هم مجرد أسرة من لادم وهي إحدى قبائل آژناكه [صنهاجة] التي كان لها نفوذ قوي في آدرار موريتانيا والتي لا نزال نعثر على بقاياها في آدرار والبراكنة والترارزة وأن شجرة النسب تلك فهي من اختلاق الطالب اجيه المختار، وأن أحد أجداد القبيلة – وهو على الأرجح الطالب اجيه المختار أو ابنه — قد هاجر من آدرار واستقر به المقام منذ مئتي سنة في الحوض إلى جوار كنفدرالية القلاقمة وأصبحت له ذرية منهم. وقد نفى كنته، الذين يمثلون التراث الإسلامي الحقيقي في الصحراء، على الدوام صفة الشرف هذه عن محمد فاضل وعائلته»[9]. فرد سعد أبيه موضحا قائلا: «نحن لسنا آژناكه. فهل رأيتم أبدا آژناكه يظهرون من الصلاح والعلم والكرامات ما يظهره أهل الطالب المختار؟ فالفضل يدل على أصول الناس. وأما كنته فقد كانوا دوما أعداءنا لأنهم يغارون من فضلنا ومن

[9]– بول مارتي، *دراسات حول الإسلام في موريتانيا: الشيخ سيديا الفاضلية* – إداو علي، ترجمة: د. البكاي ولد عبد الملك، باريس، لورو، 1916، ص 135.

نفوذنا خاصة وأنهم احتفظوا في ذاكرتهم بذكرى قوية للصراعات التي كانت تقسم أجدادنا القرشيين في زمن الرسول ﷺ فهم من بني أمية ونحن من بني هاشم»[10].

ومهما يكن من أمر فلا يخفى على أحد أن الانتماء أو الادعاء للانتماء إلى النسب الشريف فيه منافع كثيرة وتأثير كبير على البلاد الشنقيطية خاصة وعلى مجتمعات الزنوج عامة اعتبارا لكونه عامل تقديس كبير وتبجيل وتوقير عظيم للشرفاء أهل بيت الرسول.

المبحث الثاني: مولده ونشأته

ولدالشيخ محمد فاضل بن مامين يوم الأحد 27 من شعبان عام 1211 هـ / 1797 م بالحوض الشرقي في موريتانيا. في هذا الصدد قال ابنه الشيخ محمد تقي الله[11]:

وشيخُنا الفاضلُ نجلُ ماميـنْ وُلد عام "أيْرش" يا سامعينْ

من بعد هجرة النبيِّ المصطفى صلَّى عليه ربنا وشرَّفا

---

[10] – المرجع نفسه، ص 135-136.

[11] – محمدن ولد امد، المرجع السابق . لكن اختلف كثير من الباحثين والمؤرخين في ضبط تاريخ ميلاد الشيخ محمد فاضل فقال بول مارتي على سبيل المثال: إنه ولد عام 1780، انظر: *دراسات حول الإسلام*، ص117.

نشأ الشيخ محمد فاضل في بيت صلاح وفضل غلبت عليه بصمات العلم وتميز بنفوذ محسوس في معظم قبائل الحوض والساحل. وفي تعريفه للشيخ محمد مامين، قال محمد فاضل محمد مصطفى «كان الشيخ مامين مشتغلا بالعلم، كثير التطواف؛ فقد ذكرت بعض الروايات الشفهية أنه مكث مدة في فاس، وعاد منها بخزانة كتب من بينها الصحيحان، وكتاب أسامي الصحابة وهو كتاب نادر توجد منه نسخة خطية كاملة في دار العلوم في ألمانيا»[12].

وترعرع الشيخ محمد فاضل في وسط معروف ببسمات السخاء والزهد والكرامات الكثيرة[13] أيضا. قال في "الضياء المستبين" أحد أشهر المتخصصين في ترجمته «وكان هذا الولي أعني الشيخ الأمين أسخى الناس نفسا وأجودهم كفا [...]، وكان كثير القيام دائم الصيام لا يفتر من ذكر الله تعالى طرفة عين متواصل الأحزان في غير عبوسة كثير التلاوة»[14]. وكانت أمه خديجة بنت الطالب أبي بكر ولية الله تعالى «أخشى الناس لله وأتقاهم له وأعرفهم به وأزهدهم في الفاني فكانت

---

[12]–الشيخ محمد فاضل محمد مصطفى، *التصوف في المغرب العربي وأفريقيا* (تعريف بالشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين) الجزءالأول، الطبعة الأولى، الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2017.

[13] – ذكر صاحب كتاب الضياء المستبين عنه كرامات لا تعد ولا تحصى، انظر صفحات 164-174.

[14] – *الضياء المستبين*،ص 165-166.

أكثرَ عصرها علما وحكما وكانت لا تكلم أحدا إلا بسبحان الله. ومن كرامتها أنها كانت إذا لازمها بعض عمالها لا تقول هي سبحان الله إلا عرف ما تقول فكانوا يترجمون عنها وكانت لا يأتيها أحد ولا تخرج من بيتها إلى أحد ولا يأتي خاطر إلا قالت سبحان الله ففهمت أمتها مرادها فعملت معه ما ينبغي من المروءة»[15]. أما الطالب أخيار، جد الشيخ محمد فاضل وأبو محمد مامين فكان أيضا وليا كاملا قريبا غزير علم، ورتبته في العلم أكمل رتبة، وله كرامات لا تحصى وخوارق غريبة لا تستقصى وهؤلاء كلهم ليس منهم واحد إلا وله إخوة معروفون بالولاية مشهورون بها وبالعلم.

ومما نستخلصه فيما ما مضى من سطور هو أن الشيخ محمد فاضل ولد وقد وجد أبويه مشهورين محترمين مُكرَمين قد ذاع صيتهما في مجال الدين والعلم في جميع أرجاء البلاد الشنقيطية إلى درجة أنه قد لا يحتاج كثيرا إلى الاشتغال بالدين والعلم فيما عداهما. لذا كان أبوه شيخه الأول الذي أخذ عنه ما أخذ من العلم الباطني.

[15]- المرجع السابق، ص167.

المبحث الثالث: دراسته وشيوخه

يمكن تقسيم مراحل دراسة الشيخ محمد فاضل إلى ثلاث أساسية يختص كل واحدة منها بنوع خاص من العلم حصل عليه من طرف معلم أو شيخ معين. وها هي تلك المراحل: مرحلة التكوين العلمي الأساسي، ومرحلة التكوين الروحي، ومرحلة التكوين العلمي التكميلي.

فمرحلة تكوينه العلمي الأساسي تمت بحفظه القرآن حفظا عجيبا بالصلة، ما يدل على تفوقه على أقرانه بكثير وهو في الخامسة من عمره. لقد حفظ الشيخ محمد فاضل القرآن حفظا خارقا للعادة في هذا الزمن أعجب به معلمه محمد المختار بن لحبوس بن أبابك فتعجب منه حتى يرفض تسلم راتبه وهو يقول: «أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وأن أخذ أجرة التعليم من ابن مامين هذا حرام جدا بل هي عين السحت الذي لم يستحله آكله بشيء، إنه ليكتب بيده حزبا من كتاب الله أول النهار يتمه قدر ما يكتب المعلم ثمنا لبعض الصبيان ويكتب آخر النهار حزبا بيده سريعا ويحفظ حزبه بجرد إمرار عينه عليه ولا يحتاج بعد ذلك إلى من يقول له فيه كلمة»[16]. ولكن الشيخ لم يقتصر على حفظ كتاب الله على

[16]- *الضياء المستبين*، ص 214

ظهر قلب وإنما «حفظ في تلك المدة الكتب الصغار وقصص الأنبياء وسيرهم وآثار الصالحين من الأولياء وخبرهم»[17].

أما مرحلة تكوينه الروحي فتتمثل في أخذه العلم الباطني على يديْ والده وشيخه الأول الشيخ محمد الأمين وهو ابن سبع سنين كما حدثنا عنه مؤلف كتاب الضياء المستبين قائلا: «فعلمه أبوه إذ ذاك الاسم الأعظم والأسرار والحكم، وكانت تحت يديه يتصرف عن أمره فيما يأمره به أو ما يراه يحبه ويهواه، وهو في ذلك مع الله بقلبه مشاهدا له في جميع أحواله [...] ومع ما هو متلبس به من العز والرفعة لا يتخلف عن أمر والده وشيخه، ولا يتحرك إلا عن أمر وإشارته حتى بلغ خمس عشرة عاما أجازه أبوه وشيخه، وفك عنه حجره وأعطاه عمامته ، وقال له : اذهب حيث شئت أو امكث حيث شئت، فمالي عليك اليوم من حق»[18].

أما المرحلة الثالثة والأخيرة – التكوين العلمي التكميلي- فهي جاءت لتكميل المرحلة الأولى أعني مرحلة التكوين العلمي الأساسي. وتتمحور أساسا حول تعلمه الكتب الفقهية المالكية التي كانت سائدة في هذا العصر في البلاد الشنقيطية في الأعم وفي الحوض بالأخص. وإذا كان كل من المرحلتين الأوليين

---

[17]- المرجع نفسه.

[18]- المرجع نفسه، ص214-215و 218.

تتميز بأخذه العلم لدى شخص واحد فإن تعلمه في هذه المرحلة تم لدى علماء فقهاء كثيرين مختلفين. فقرأ رسالة ابن أبي زيد على ابن عمته الطالب بن الحسن إلا أن هذا الأخير «مع كبر سنه ووفور علمه يأخذ منه علوم الحقائق ويلتمس بركته في كل مهماته»[19]. ثم ذهب إلى محمد بن الطالب إبراهيم ومعه حينذاك عدة من التلامذة ليدرس مختصر الشيخ خليل عنده. وبسبب خلاف دار بينهما، ذلك أن محمد بن الطالب إبراهيم أنكر عبقرية الشيخ الذي كان يطلب منه أكثر مما كان يطالبه لطلابه أن يحفظوه، تركه ثم سار إلى سيد المصطفى بن عثمان بن محمد الكيحل فحفظ لديه المختصر على ظهر قلب مدة شهر. وفي هذه الأثناء، وشيخنا ابن عشرين سنة، تسلم مفاتيح العلوم في يديه بلا مشقة ولا تعب ولا كد ولا نصب. لما توفي العالم العلامة سيد عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي وكانت بيده مفاتيح العلوم اجتمع الأولياء عنده يطلبون رجلا يجعلون بيده هذه المفاتيح فقال قائل منهم على ما ذكره صاحب الضياء المستبين الذي ألفه في حياة شيخه الشيخ محمد فاضل: «اجعلوها بيد الشيخ محمد فاضل بن مامين فهو أهلها وهو الحائز قصب السبق فيكم فلا يجاريه المجاري ولا يباريه المباري فأخذها كافة أهل تلك الحضرة من الأولياء والملائكة وأتوه بها وقالوا: هذه مفاتيح العلم كانت بيد هذا

[19]- المرجع نفسه، ص219.

الرجل وليس لها بعده من أهل غيرك فأخذوها واختص بها دون غيره، فعلم كل علم بلا كد ولا كدح بل بمحض تخصيص إلهي وعناية ربانية»[20]. ولعل ذلك سبب قول الشيخ محمدن ولد امد «وللشيخ محمد فاضل اليد الطولى في العلوم كلها فقها وحديثا وقرآنا ونحوا ولغة ومنطقا وبيانا وهندسة وغير ذلك، وكان علم العربية من أحب العلوم إليه»[21].

وإذا أمعنا النظر في تلك الحوادث رأينا أنها إن دلت على شيء فإنما يدل على كرامات الشيخ، وله من الخوارق والكرامات ما لا يحصيه الحصر ولا يكتنفه الفكر.

الفصل الثاني: الطريقة الفاضلية

لعب الشيخ محمد فاضل في الحوض أدورا في غاية الأهمية من خلال إنجازات متميزة تتجلى في مختلف مناحي حياة الإنسان دينا واجتماعا وثقافة وعملا وعلما. لإبراز أبعاد تلك الإنجازات التي ما زالت موضوع بحث لمفكري عصرنا، نستهل دراستنا في هذا الفصل بتأسيسه الطريقة الفاضلية ثم قيامه بنشرها بعدما استعرضنا تعاليمه الصوفية والفقهية.

---

[20]- المرجع نفسه، ص224.

[21]- المرجع السابق.

المبحث الأول: تأسيس الطريقة الفاضلية

بعد ما أتم الشيخ محمد فاضل دراسته العلمية وتكوينه الروحي وحصل على إجازته لدى أبيه وشيخه وتسلم مفاتيح العلوم من طرف جماعة الأولياء، قام بشأن عظيم ألا وهو الشروع في تأسيس طريقته الخاصة، الطريقة الفاضلية، ونشرها في الحوض وما حولها من المناطق المحيطة بها في البلاد الشنقيطية بزعامة ابنيه المشهورين سعد أبيه في الترارزة في الجنوب الموريتاني وماء العينين في الصحراء المغربية وفي الشمال الموريتاني.

تفرعت الطريقة الفاضلية من الطريقة القادرية التي هي من أقدم الطرق الصوفية وأكثرها انتشارا **في إفريقيا جنوب الصحراء**. وتنسب الطريقة القادرية إلى سيدي عبد القادر الجيلاني (1079-1166/1167) المولود في الجيل أو الجيلان قرب بغداد. وهو صوفي كامل لقب بعدة أسماء منها: قطب الله (Pôle de Dieu)، سيف الله (Sabre de Dieu)، آية الله (Prodige de Dieu) احتراما وتقديسا له. ويسمى قادرية أتباعُه ومريدوه[22]. انتقلت القادرية إلى المغرب على يد أبي مدين شعيب الأنصاري الأندلسي وانتشرت في إفريقيا الغربية على يد الشيخ محمد عبد

[22]- O. Dupont, X.Coppolani, *Les confréries religieuses musulmanes*, Alger, Jourdan, 1897, p. 293-294.

الكريم المغيلي التلمساني التواتي (ت1533 م). وعنه أخذ الطريقة الشيخ سيدي عمر بن الشيخ سيد أحمد البكاي بن سيدي محمد الكنتي الشنقيطي[23] لما سافر إلى الشمال ولقي الشيخ محمد عبد الكريم المغيلي. وتفرعت القادرية في إفريقيا جنوب الصحراء إلى شعبتين كبيرتين هما: البكائية والفاضلية.

أسس الشعبة البكائية سيدي عمر (1460-1552/53 م) بن الشيخ سيد أحمد البكاي. وأطلق عليها معاصروه اسم البكاي (البَكَّاء: le larmoyant) احتراما لورعه إذ روي أنه فاتته يوما الصلاة في المسجد فذرف دموعا حارة (couler des larmes abondantes) توبة إلى الله. ومنذ ذلك اليوم مازال يبكي أو مازالت على الأقل عيناه مُبْتَلَّتين[24] (yeux humides). وبلغت البكائية قمة مجدها على يد الشيخ سيدي المختار الكنتي (1821م)[25].

أما الشعبة الفاضلية فتتميز، علاوة على المبادئ الأساسية للطريقة القادرية، بثلاثة عناصر أساسية، وهي: السلسلة الروحية الشريفة للشيخ، والتجديدات التي

---

[23]- الخليل النحوي، *بلاد شنقيط: المنارة* .. والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987، ص121.

[24]- Paul Marty, *Etude sur l'islam et les tribus du Soudan (Les Kounta de l'Est - Les Berabich - Les Iguelland)* Tome 1,Volume XXXVII, Revue du monde musulman, Paris, Ernest Leroux, 1918-1919, p. 17.

[25]- *بلاد شنقيط*، ص121. أما بول مارتي (Paul Marty) فحدد حياته بين1760و1811، المرجع نفسه، ص27.

أدخلها على الورد القادري، وتخويله لمنح كل الأوراد؛ فإن الشيخ محمد فاضل، بعد أخذه الطريقة القادرية عن أبيه وشيخه الذي، كما أسلفنا ذلك، أثناء تكوينه الروحي، علمه بعض لوازم الصوفية مثل **الاسم الأعظم والأسرار والحكم** قام بإعلان وتأكيد أصوله الشريفة التي قدمها الشيخ سعد أبيه كالتالي: «الرسول محمد ﷺ، علي، الحسن، السقط السري، الجنيد، الشبلي، الشنبكي، أبو الوافي، عبد القادر الجيلاني، ابن هيته، السهرودي، ابن العربي، عبد السلام بن مشيش، الإمام الشاذلي، أبو العباس المرسي، عطاء الله، الإمام الباجلي، محمد، علي بن أوفى، عقبة الحضرمي، زروق، سيدي يحيى، (سيدي محمد)، الطالب حبيب، الطالب اجيه المختار، الطالب محمد خيار، مامين، محمد فاضل»[26]. والجدير بالذكر أنه كما كانت شجرة نسبه الشريف (أصله الشريف) التي قد تعرضت لطعن ونقد لاذع هكذا كانت سلسلتهم الروحية الشريفة (سلسلة نسبهم في الطريقة القادرية) محل هجوم شديد –أو أكثر شدة– أي هجوم بلا هوادة إذ ذهب بعض الطرق الصوفية إلى أن شيوخ الفاضلية يعترفون بعدم وجود سلسة روحية لهم.

أما التجديدات التي طرأت على الطريقة القادرية والتي تكون خصائص الفاضلية فإنها تتمحور حول الورد القادري وتتلخص مثلا في رفع الصوت أثناء

[26]– *بول مارتي، دراسات حول الإسلام في موريتانيا*، ص139.

الأذكار وحالات الرقص والجذب التي يتعرض لها تلاميذ الشيخ وأتباعه أثناءها. وحسب صاحب "الضياء المستبين" فإن كلا من هذه المظاهر الخارجية التي ترافق الأذكار لورد الفاضلية وتعطيها وجها خاصا مرجعها الكتاب والسنة. ويقول إنه إذا باح رفع الصوت في المسجد فرفعه بذكر الله أحرى بل لا يبعد أن يكون الأقرب للوجوب مستندا إلى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ﴿٢٠٠﴾﴾[البقرة][27]. ويقول في الرقص مستدلا بكتاب النهار لابن حجر إن الحبشة كانوا يرقصون في مسجد النبي ﷺ وهو ينظر إليهم ويشجعهم على الجد في الرقص والشطح والصفق كي يعلم اليهود أن في ديننا فسحة[28]. ويقول أيضا في حالات الجذب إنه لنتيجة إزالة الحجاب بين العبد وربه وللتجلي الإلهي مستندا إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر][29]. وكان الشيخ محمد يدعي أيضا أن الرسول ﷺ خوله منح كل الأوراد. لذا، فإن الشخص له الحرية التامة في اختيار الطريقة التي تناسبه كما له الحرية في

---

[27]- *الضياء المستبين*، ص130.

[28]- المرجع السابق، ص131.

[29]- المرجع نفسه، ص150.

الانتماء إلى طرق مختلفة في آن واحد وفي مستوى واحد. ولعل السبب يرجع إلى أن الأوراد (القادرية والتيجانية والشاذلية إلخ) كلها موصلة إلى الله تعالى لأن «الاتحاد بينهم في المقصد والمبدأ والمنتهى، فالمقصد الوصلة إلى الله تعالى لا غير، والمبدأ التوجه إليهم بالعزم التام والهمة النافذة والصدق في الطلب بأن يكون مقصده أعز عليه من الدنيا والآخرة وأهليهما [...] وأما المنتهى فهو الفناء في شهود ذات الله تعالى عن شهود غيرها»[30].

ولعل تلك التجديدات هي السبب في تسمية الشيخ محمد فاضل بـــ "المجدد" في التصوف كما قال عنه المحجوبي: «أحيا طريقة الشاذلي والشبلي في أرض الحوض بعد ما ماتت؛ فهو شيخ الحقيقة ومنار الطريقة كالجنيد في عصره والشبلي في دهره والشاذلي في دوره»[31].

وعلى كل حال، اعتبارا لقول الشيخ ماء العينين بن محمد فاضل، فالطريقة الفاضلية جزء لا يتجزأ من الطريقة القادرية وورده القادري «من أجل الأوراد قدرا

---

[30]- المرجع نفسه، ص 126.

[31]- أبو بكر بن أحمد المصطفى، *منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور*، دراسة وتحقيق: د. محمد الأمين بن حمادي (موريتانيا خلال القرن التاسع عشر 1785-1908)، ص 188.

وأوفرها ذخرا وأعلاها ذكرا وهو يغني عن جميع الأوراد ولا يغني عنه ورد، ومن أجل فوائده أن صاحبه لا يموت إلا على حسن الخاتمة وكفى بها مزية»[32].

المبحث الثاني: تعاليمه الصوفية والفقهية

من المسلم به، فإن الشيخ محمد فاضل لم يقتصر على تأسيس شعبة جديدة ضمن الطريقة القادرية فحسب وإنما اهتم أيما اهتمام بتربية تلامذته روحا وجسدا، عملا وعلما بالقواعد الصوفية والفقهية المؤسسة على الكتاب والسنة مستهدفا إصلاح الفرد والمجتمع إصلاحا شاملا. لقد ورد في "الضياء المستبين"[33] جمل وعبارات لا تعد ولا تحصى تشير إلى أنه كان يربي مريديه بمقتضى الكتاب والسنة المحمدية وكان يأمرهم بذكر الله تعالى ويحضهم على الدوام عليه والإكثار به أخذا بمقتضى قوله تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة] وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [الأحزاب]. وقوله:﴿فَإِذَا قَضَيۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمۡۚ﴾ [النساء] وقوله: ﴿فَإِذَا

---

[32]- الشيخ ماء العينين بن سيدي محمد فاضل بن مامين، *كتاب نعت البدايات وتوصيف النهايات*، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط و د.ت، ص202.

[33]- *الضياء المستبين*، ص 126.

قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة] وقوله ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران][34].

وكان يعجبه اجتماع مريديه لذكر الله بقول ﴿**لا إله إلا الله**﴾. ويستند في ذلك إلى قول أبي هريرة ﷺ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿**أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله مخلصا من قلبه ونفسه**﴾. وكان النبي ﷺ يقول: ﴿**أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله**﴾. وفي الصحاح قال رسول الله ﷺ: ﴿**أفضل ما قلت أنا و النبيون من قبلي لا إله إلا الله**﴾[35].

وكان الشيخ محمد فاضل يراعي الاحتياط والتسامح والتيسير وينفر من التطرف والتعسير والتعصب إذ إنه «كان لا يحرج على مسلم فيما يجد له فيه سعة إلا أن تكون التوسعة تؤدي إلى انتهاك حرمات الله فيسد ذريعتها حسما لمادة

[34]- المرجع نفسه، ص126-127.

[35]- المرجع نفسه، ص 137-138.

الفساد» اعتمادا في ذلك على قول رسول الله ﷺ الذي كان يحث الناس على الاقتصاد في الأمور كلها ويقول: ﴿**يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا**﴾[36].

وكان الشيخ يلازم المساجد ويحبها ويحث الناس على الصلاة فيها، وكثيرا ما يقول إن النبي ﷺ قال: ﴿**إذا رأيتم الرجل يتخلف إلى المساجد فاشهدوا له بالإيمان، فإن الله تعالى يقول: إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**﴾[37].

إذا كان الشيخ يعتمد على المذهب المالكي السائد في بلاد شنقيط كسائر الطرق الصوفية الأخرى فذلك لا يمنعه من الخروج عنه في بعض فتاويه متبنيا مبدأ التيسير والتكيف مع البيئة الصحراوية القاسية لمصلحة أتباعه الذين يعيشون في ظروف طبيعية واقتصادية صعبة تتميز بالجفاف والفقر والمجاعة وشدة الحرارة والبرد هلم جرا. فمن تعاليمه الفقهية الواردة في كتاب ترجمته "الضياء المستبين" أن الشيخ محمد فاضل كان «لا يضيق على من لم يدرك الركوع الأول مع الإمام وتبعه حتى لحقه ولا يفتيه ببطلان صلاته بل ربما يفتيه بصحتها إذاكان أهلا للتوسعة وربما

---

[36]- المرجع نفسه، ص 42.

[37]- المرجع نفسه، ص 52.

أحاله إلى غيره بأن يقول له سل فلانا أو فلانا فيفتوه بإعادته [...] ولا يضيق على أرباب الأموال في زكاتهم فيما يرى له وجها في السنة، فقد كان يأخذ منهم جميع ما دفعوا له عن زكاتهم من عرض وغيره [...] ولا يضيق على أحد في الزكاة ما وجد له سبيلا ولا في النكاح ولا في الطلاق ويقول: دين الله يسر ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه [...] فكان لا يمنع الناس من المجاعة من أكل أكيلة إذا أدركوا ذكاتها ولو نفذت مقاتلها أخذا منه الاستثناء في الآية أعني قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ ۝٣﴾ [المائدة]. وكان لا يضيق على من غلبته عيناه عن سحوره ولم يستيقظ له إلا بعد الصلاة فلما تسحر أخبر أن قد صلى الناس إذا كان غير مجانف لإثم ولا متساهل بحدود الله»[38].

وبناء على هذا، فإن تعاليم الشيخ محمد فاضل وفتاويه كلها مستنبطة إما من الكتاب أو من السنة أو كلاهما معا وأن مرجعها مراعاة الضرورات والتيسير على الناس كما قال سبحانه وتعالى في دستوره السماوي: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا

[38]- المرجع نفسه، ص 50-49.

إِلَّا وُسۡعَهَا﴾[39]. وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾[40].

وإذا كان الأمر هذا هكذا، فذلك يدل على أن اهتمامه بالقرآن والسنة النبوية لا شك فيه ولا غبار عليه وأن خلقه القرآن كما يتجلى في صفاته ومعاملته فيما بعد.

لكن، رغم كل ذلك، بما أن بعض فتاوى الشيخ كانت خارجة عن إطار مذهب الإمام مالك السائد في هذا الزمن في بلاد شنقيط فإن جل معاصريه خالفوه في ذلك بسبب التزامهم المذهب المالكي كالعلامة الشيخ محمد بن أحمد الصغير التيشيتي[41] وحتى لو كان يكنّ له احتراما كبيرا، وفقا لقول الشيخ محمد فاضل محمد مصطفى. ومن جانب آخر، لا شك أن من أراد أن يكون قدوة صالحة خالدة لأهله فلا مناص أن يتحلى بأخلاق محمودة وخصال طيبة يقتدى ويهتدى بها ظاهرا وباطنا، عملا وعلما لأن «القطب لابد أن يتحقق بالحقائق المحمديّة كلها، ويتخلق بالأخلاق التي سمى الله تعالى محمدا محمدا»[42]. هكذا كان الشيخ

---

[39]- سورة البقرة، الآية ص286.

[40]- سورة الحج، الآية ص78.

[41]- للتوسع في موضوع الخلاف حول "لزوم أو عدم المناجزة في بيع الملح بغيره من الأطعمة" بين الشيخ محمد بن أحمد الصغير ومحمد فاضل وتلميذه محمد فاضل بن الحبيب، راجع *"التصوف في المغرب العربي وأفريقيا* (تعريف بالشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين)"، ص140-143.

[42]- *الضياء المستبين*، ص14.

محمد فاضل الذي قال عنه صاحب ترجمته "الضياء المستبين" ملخصا واصفا خلقه: إن هذا الشيخ خلقه القرآن يرضى برضاه ويغضب بغضبه أي أنه متأدب بآدابه ممتثل لأوامره يحب ما يحب ويكره ما يكره[43]. وفي ذلك وردت في نفس الكتاب جمل من الأمثلة المعبرة ما لا يدخل تحت الحصر. فعلى سبيل المثال كان الشيخ محمد فاضل ملازما لأوقات الصلاة، أخذا بفضيلة أول الوقت مستدلا بقوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران]، وبقوله ﷺ: ﴿**أفضل الأعمال الصلاة في أول وقتها**﴾[44].

وكان الشيخ إذا أحرم في الصلاة يُسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل من شدة الخشوع. وكان أوجز الناس صلاة مع التمام في الأركان أخذا بقوله ﷺ: ﴿**من صلى بالناس فليخفف فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة**﴾[45]. وكان الشيخ إذا صلى الصبح جلس في المسجد متوجه القبلة عاكفا على الأذكار لا يكلم أحدا حتى تطلع الشمس، حينئذ يسوغ تكليمه لأهل الحاجة وكان إذا صلى العصر

---

[43]- *الضياء المستبين*، ص25.

[44]- المرجع نفسه، ص26.

[45]- المرجع نفسه، ص30.

جلس في بيت خلوته فلم يأته أحد ويبقى هناك فارغا لأوراده حتى تغرب الشمس وذلك أخذا بقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ٢٥﴾ [الإنسان][46]. وفي ذلك يقول المحجوبي: «وكان شديد الخوف من الله. فكان في أول أمره لا يطيق سماع القرآن، فإذا سمعه أو قرأه بكى وسقط إلى الأرض، ثم بعد ذلك صار يطيق سماعه لكن مع بكاء وأنين وتنهُّد. وكان إذا صلى الصبح لا يتكلم ولا يقوم من مجلسه حتى يصلي الضحى»[47].

وكان الشيخ يلازم قيام الليل ولا يفارقه في كل أحواله من سفر وحضر فكان يقوم بالقرآن أكثر الليل أو كله في غالب الأحوال، كثير الصيام بحرص فيه على موافقة السنة. فقد كان يعجل الفطر عندما تغيب الشمس ويؤخر السحور أخذا منه بالسنة في قول ﷺ: ﴿**لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر وأخروا السحور**﴾[48]. وقال أيضا المحجوبي إنه: «يقوم الليل لا ينام فيه، ويصوم النهار لا يفطر فيه، كثير الحب والخوف في الله، كثير البكاء قريب الدمعة، رقيق القلب

---

[46]- المرجع نفسه، ص33.

[47]- *منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور*، ص188.

[48]- المرجع نفسه، ص40.

متواصل الأحزان، ليست له راحة دائم التفكر، مهابا معظما [كذا] لا يراه أحد إلا أحبه، أديبا، لبيبا، طيبا، حسن الخَلق والخُلق»[49].

أما حسن معاملات الشيخ مع الناس برمتهم فحدث ولا حرج. وكان الشيخ كثير الرماد، أسخى الناس. وحسب "الضياء المستبين" كان الشيخ «إذا اشتد الزمان وضاقت الأزمة أجود بمعروفه من الريح المرسلة فلا يأتيه ركب ولا وفد ويحب الرجوع من عنده لحسن ما يلقون عنده من كرائم المعاملات، فلقد رأيتهم في زمن الغلاء وضيق المعاش كثيرا ما يمكث عنده الركبان العظام من أبناء الأشراف عربانا وزوايا وشرفاء وليس لهم هناك غرض إنما يتجدد لهم كل يوم من إحسانه وطلاق وجهه ما ينسيهم ما كانوا بصدده من أغراضهم، ولا يعتبرون ما يفوتهم من توفير أغراضهم»[50].

وكانت معاملة الشيخ مع أقربائه لا تقل أهمية من معاملته مع غيرهم بل كان لهم فيما يأملون ويسعفهم بجميع ما يريدون يمتثل فيهم ما قال تعالى: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الإسراء]، وقوله عليه السلام: ﴿**خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي**﴾. وكان يحسن إلى الخدم أكمل الإحسان ويترفق بهن في كل الأحيان،

---

[49]- المرجع نفسه، *منح الرب الغفور*، ص188.

[50]- المرجع نفسه، ص58.

وكان يعامل الجيران بما يمكن أن يقع من الإحسان فكان يتفقد أحوالهم غدوهم وآصالهم فلا يبيتون في ضيق وعياله في سعة[51].

وإذا كان الأمر ذلك كذلك أعني ما كان عليه الشيخ من عبادة وتحنث وحسن سلوك ومكارم أخلاق فلا غرو أن يشهد له المحجوبي أنه «كان رحمه الله تعالى عالما وليا عابدا زاهدا غرة عصره في عبور طريق السلف الصالح. وكان على قدم من الصلاح والورع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، صدرا من صدور العلماء وعلما من أعلام الأولياء، ذا جد واجتهاد ولزوم أذكار وأدعية وأوراد، تناهى في الفضل والدين والصلاح والورع واليقين، علم[علما] من أعلام الدين وأئمة الإسلام ومشايخ التقوى ما سمعنا بمثله في العبادة لا قبله ولا بعده في هذه البلاد فهو شمس ضحاها وقمر سناها، تـــأتيه التلاميذ من كل فج ومكان، ويربيهم وتظهر عليهم بركته»[52].

المبحث الثالث: نشر الفاضلية

انتشرت الطريقة الفاضلية في بلاد شنقيط خاصة وفي إفريقيا الغربية عامة نتيجة لنجاح باهر يتمثل في عوامل عدة أهمها دينية واجتماعية وثقافية وسياسية.

---

[51]- المرجع نفسه، ص61و64.

[52]- *منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور*، ص188.

فالعامل الديني يتمحور حول العناصر الآتية وما يترتب عنها من آثار بالغة الأهمية: النسب الشريف للشيخ محمد فاضل، وكراماته العديدة، والتجديدات التي قام بها ضمن الطريقة القادرية، وتخويله لمنح جميع الأوراد. أما النسب الشريف للشيخ، فلا يخفى على أحد أنه، كما أشرنا إلى ذلك أعلاه، يلعب دورا هاما في إعطاء الطريقة الفاضلية طابعا خاصا يحمل الناس إلى احترام الشيخ وإكرامه إكرام أهل بيت الرسول علاوة على كونه ولي الله. الشيء الذي يدفعهم بديهيا حتى إلى تقديسه في الغالب الأعم والتجمع عنده للتبرك به خالصين له ممتثلين لجميع أوامره بحفاوة لأن أولياء الله، يجب تصديقهم في كل ما أخبروا به مما تحتمله العقول والتسليم لهم فيما لا تحتمله من غير طعن ولا تكذيب، وفي ذلك قول ﷺ: ﴿**الولي في قومه كالنبي في أمته**﴾[53]. وإذا زدنا على ذلك كرامات الشيخ التي لا تعد ولا تحصى لعرفنا أنه لا عجب أن تعرف الفاضلية انتشارا ملحوظا لدى الجماهير في وقت قياسي. ومن العناصر التي ساهمت في نشر الطريقة الفاضلية دينيا هي التجديدات التي أتى بها الشيخ في الطريقة القادرية مثل الرقص والجذب والأذكار الجهرية التي تتلاءم مع طبيعة الزنوج الذين يرون أنفسهم وهم يعبرون عن شعورهم وعواطفهم وانفعالاتهم وتأثرهم في كل شيء خلافا للآخرين. فإن الزنوج

[53]- *الضياء المستبين*، ص10.

يتعاملون مع الأشياء معاملة عاطفية منفعلين متأثرين بها. ولعل ذلك هو السبب في تعرضهم للرقص والجذب ورفع الصوت أثناء الأذكار كما يفسر ذلك تعلقهم بالطريقة الفاضلية دون غيرها. وإذا أضفنا إلى ذلك حريتهم في تلقي الورد القادري أو غيره من الأوراد التي تناسبهم في آن واحد من قبل الشيخ، لفهمنا بسهولة أن ذلك ساعده كثيرا في جذب الكثير من المريدين والأتباع وتفضيلهم الطريقة الفاضلية على الأخرى. ويقول عنه في ذلك بول مارتي: «هذا ما يفسر لجوء العديد من الزنوج الذين اعتنقوا الإسلام إلى التلمذة لأحد شيوخ الفاضلية ليحصل منه على التوالي أو التزامن بحسب حالاتهم المادية على كل الطرق الإسلامية المتبعة في البلد»[54]. الشيء الذي حمل بالتأكيد كابوليني الذي قيل إنه أول من أشار إلى كلمة "الفاضلية" في كتابه "الطرق الصوفية الإسلامية" إلى القول: «فإن هذه الشخصية قد أعطت للطريقة التي يزعمها قدرا كبيرا لتطوره في أدرار. وكان يكن له الموريتانيون تقديسا عظيما كما كان مشهورا عندهم باسم الشيخ الكبير حتى في وقتنا هذا، ومريدوه يسمون بالفاضلية»[55].

[54]- *دراسات حول الإسلام في موريتانيا*، ص138.

[55]- *Les confréries religieuses musulmanes*, Op. cit. p. 317.

أما العامل الاجتماعي والثقافي فيتعلق بالدور المهم الذي لعبه الشيخ في المجتمع كرائد وقائد اجتماعي وثقافي. فمعاملاته مع الناس معاملة مثالية وتعاليمه وفتاواه ذاع صيتها في الحوض وفي المناطق المجاورة قبل أن تنتشر خارج بلاد شنقيط. فدور الشيخ في الوساطة والتوفيق والصلح بين القبائل وسد حاجات المحتاجين وإنقاذ المتضررين والمهددين بالقتل وعلاج المرضى مكلل بنجاح باهر. على سبيل المثال لا الحصر فلنذكر، حسب سعد أبيه بن محمد فاضل، وساطة الشيخ خلال الحرب القاتلة بين القبائل الحسانية في تغانت والقبائل في الحوض. فجاءت إليه قبائل الزوايا طلبا منه أن ينجيهم من هجوم القبائل الحسانية. فلبى طلبهم ورافقهم حتى وصلوا إلى الزوايا آمنين سالمين[56]. علاوة على ذلك، فلقد رأينا من قبل أن كرامة الشيخ وسخاءه وجوده تعم الجميع من بينهم الأقرباء والجيران وأبناء الأشراف خاصة في زمن متأزم ضاق فيه العيش. الشيء الذي جعل دار الشيخ ملجأ آمنا للفقراء من المحتاجين والمساكين والمرضى والضحايا المتعرضين للتهديد أو القتل أو النهب وجعل الشيخ يتمتع بنفوذ كبير في قبيلته جمعاء في الوقت الذي يطغى عليه الخوف والظلم والغزو والجوع والجفاف فاجتمع عنده

[56]- Rahal Boubrik, *Saints et Société en Islam. La confrérie ouest-saharienne Fâdiliyya*, Paris, CNRS Editions, 1999, p. 91.

جمع غفير من كل صوب وحدب بحثا عن الأمن والسلام والشفاء وقضاء الحاجة والبركة. وفي ذلك يتكلم رحال بوبريك عن الشيخ وأنداده في الحوض الذين لا يهتمون إلا بالسلم أن هذا «الدور الخاص جعل الأشياخ يلعبون دور مجيرين (protecteurs)لا عن طريق سلاح كما هو الحال مع المجيرين المقاتلين بل عن طريق البركة» [57]. إضافة إلى هذا، فإن تعاليم الشيخ وفتاواه انعكست إيجابيا في نفوس أتباعه الذين يرون أنفسهم فيها تلبية لحاجاتهم في هذه البيئة القاسية. فاتباع الشيخ طريقة مراعاة الضرورات والمصالح حتى ولو أنه في بعض الأحيان يصدر فتاوى خارجة عن مذهبه المالكي، خصص للطريقة الفاضلية دور الطريقة التي تراعي وتأخذ بعين الاعتبار خصائص المنطقة بصفة خاصة، مما يؤدي حتما اندماجهم فيه دون غيره من الطرق الصوفية الملتزمة بالمذهب المالكي لا غير. فقد تتلمذ عليه خلق غفير، وأتـــاه التلاميذ من كل فج عميق، فيربيهم وتظهر عليهم بركته ثم انتشروا في بلاد شنقيط وغيره لبث تعاليمه التي وصلت حتى إلى المغرب شمالا والسنغال جنوبا.

وفيما يتعلق بالعامل السياسي فيدور حول استراتيجية الشيخ في توزيع المسؤوليات على أبنائه وتعيينهم في أماكن مختلفة خارج الحوض لنشر أوسع

[57]- المرجع نفسه، ص103.

للطريقة الفاضلية. فاختار اثنين منهما خاصة، وهما سعد أبيه ومحمد المصطفى المعروف بماء العينين لتعيينهما خارج الحوض. فعين الشيخ سعد أبيه في بلاد الجنوب الموريتاني حيث واصل الشيخ سعد أبيه رسالة أبيه القائمة على التسامح والسلم ونبذ التعصب والعنف. فنهج منهجه وكانت قاعدته المشهورة أنه من أخذ السلاح ترك الصلاح. فواجه المستعمرين الفرنسيين بحكمة وذكاء بلا سلاح سجل في ذلك نتائج غير مسبوقة في نشر الطريقة الفاضلية التي انتشرت انتشارا واسعا في السنغال وغينيا ومالي وغامبيا أعني في جميع دول غرب إفريقيا حيث يعد أتباعه مئات ومئات. فأصبح حامل لواء الطريقة فيها. أما الشيخ ماء العينين فعين في شمال موريتانيا في الساحل لبث الطريقة. فواصل بعثة أبيه سالكا مسلكه في العبادة والتقوى حاملا مشعل الدعوة إلى الله ودعا أتباعه إلى عدم التفريق بين الطرق قائلا في قصيدته[58] "إني مخاو لجميع الطـــرق أخوّة":

إنـــي مـــخاو لـــجمـــيع الطـــــرق أخوّة الإيـــمـــان عـــنـــد المـــتقي

ولا أفـــــــرّق لـــلأولـــــيـــــاء كـــمن يـــــفـــــرّق للأنـــبـــيـــاء

[58]- الشيخ ماء العينين، قصيدة "إني مخاو لجميع الطرق أخوة"، منتديات شبكة الصوفية، صفحة انترنت عنوانها: http://soufies.net/showthread.php?p=2102، توجد فيها "قصيدة إني مخاو لجميع الطرق" لسيدي القطب العلامة ماء العينين رضى الله عنه. نشرها ناقلها في 14/02/2018. لا يوجد فيها ترقيم للصفحات.

قـــال تـــعالى الـــمؤمـــنـــون إخوة وعدم الـــتـــفـــريـــق فـــيـــه إسوة

لكن، على خلاف أخيه سعد أبيه، اشتهر الشيخ ماء العينين بسلوكه مسلك الجهاد المسلح لفرض نفسه والطريقة ضد المستعمرين الفرنسيين. توفي الشيخ محمد فاضل ليلة الجمعة، عاشوراء، في الحوض الشرقي، عام 1869 م وسمي مدفنه بدار السلام. وقال في ذلك الشيخ سعد أبيه بن الشيخ محمد فاضل في كتابه الخواتم، وفقا لقول محمدن ولد امد : فلما حضرته الوفاة ليلة الجمعة ليلة عاشوراء التفت إلى أبنائه وقال لهم مسجدَكم وضيوفَكم مرارا، فانظروا ما في هاتين الكلمتين من الحض على الدين والمروءة، ثم كرر الرفيق الأعلى مرارا ثم اشتغل في سبحته فما راعهم إلا سقوطها من يده فعلموا أنه قد مات رضي الله عنه لأنها لم تسقط من يده قبل ذلك قط»[59]. وخلف بعده عددا كبيرا من أبناء وبنات وتلاميذ أخذوا عنه العلم والطريقة كما خلف مؤلفات عديدة في التصوف وعلم الأصول والفقه والعروض واللغة منها: مطيّة المجدّ، وفقه المنى، والتيسير، والنور الساطع، وحصن الطريد، ومنظومة في اللغة على الجوهر المكنون، وسيف المجادل، وسيف السكت، وكشف الحجاب، والتوضيح في علم العروض، وتأليف في علم القوافي، وتأليف في

[59]– محمدن ولد امد، المرجع نفسه.

علم الأصول، ومختصر على ألفية ابن مالك، وشرح على الجوهر المكنون، ومجموعة من النوازل الهامّة.

الخاتمة

بناء على ما قمنا به من تفاصيل خلال عرضنا حول الشيخ محمد فاضل بن الأمين المعروف بمامين، مؤسس الطريقة الفاضلية، يمكن تلخيص الخطوط العريضة والنتائج التي تم استخلاصها فيما يلي من سطور.

أولا: الشيخ محمد فاضل ولد ونشأ في أسرة تمتاز بالعلم والزهد والورع والشرف. فاشتهرت عشيرة آل الطالب المختار أهل الشيخ محمد فاضل بأنهم شرفاء يرتفع نسبهم إلى البيت النبوي كما اشتهروا بالميزة العلمية وعبادة الله: أخذ الشيخ محمد فاضل بن مامين العلم الباطني عن أبيه. أما أمه فذاع صيتها من بين عباد الله الصالحين.

ثانيا: أسس محمد فاضل بن مامين أحد أشهر فرعي الطريقة القادرية والذي يحمل اسمه، ألا وهو الطريقة القادرية الفاضلية. علاوة على التجديدات الأساسية مثل الجذب والرقص والأذكار الجهرية وادعائه بتخوليه لمنح كل الأوراد (القادرية، الشاذلية، التيجانية، إلخ) والتي تساير طبيعة الزنوج الذين يتعاملون مع

الأشياء معاملة عاطفية أكثر من تعاملهم معها بغيرها فإن نسبه الشريف وكراماته التي لا تعد ولا تحصى ساعدته على جلب احترام الناس إليه تقديسا له مما أدى إلى نجاح دعوته وانتشار طريقته انتشارا واسعا في الحوض وما حوله من المناطق المجاورة. كما أن تعاليم الشيخ وفتاواه المستنبطة من الكتاب والسنة والقائمة على مراعاة الضرورات والمبنية على التيسير والتسهيل على الناس دون التعسير والتشديد عليهم لعبت، ولو خرجت في بعض الأحيان عن إطار المذهب المالكي الشائع في بلاد شنقيط (موريتانيا) آنذاك، دورا هاما جعل طريقته قبلة لمريدين وتلاميذ يفدون إليه من كل فج عميق قبل الرجوع إلى أهليهم مواصلين فيهم رسالته في نشر طريقته.

ثالثا: فصفاته المحمودة وتعاملاته الحسنة معاملة تعم الجميع جعلت داره ملجأ آمنا لجمع غفير من الناس المتمتعين بسخائه وكرمه وجوده في الوقت الذي ساد فيه الفقر والخوف والعنف. ولذا، ندعو الباحثين لدراسة هذه الشخصية المتعددة الجوانب علما وعملا، فقها وتصوفا، دراسة يستحقها أيما استحقاق لكونه قدوة صالحة خاصة للشباب الذين مازلوا يواجهون في عصرنا هذا تحديات عديدة ومتباينة تهدد مستقبلهم.

المصادر والمراجع باللغة العربية

- ابن الحبيب محمد فاضل، كتاب الضياء المستبين في كرامات شيخنا: الشيخ محمد فاضل بن شيخنا الشيخ مامين، مخطوط (مطبوع)،د.ط و د.ت.
- حمادي محمد الأمين، موريتانيا خلال القرن التاسع عشر 1785-1908، دراسة وتحقيق لكتاب " منح الرب الغفور في ذكر ما أهمل صاحب فتح الشكور"لمؤلفه أبي بكر بن أحمد المصطفى (ت1917/1335).
- ماء العينين الشيخ،كتاب نعت البدايات وتوصيف النهايات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
- مارتي بول، دراسات حول الإسلام في موريتانيا: الشيخ سيديا الفاضلية – إداو علي، ترجمة: د. البكاي ولد عبد الملك، باريس، لورو، 1916.
- محمد مصطفى الشيخ محمد فاضل، التصوف في المغرب العربي وأفريقيا (تعريف بالشيخ محمد فاضل بن محمد الأمين) الجزء الأول، الطبعة الأولى، الثقافية للطباعة والنشر والتوزيع، تونس، 2017.

- المصطفى أبو بكر بن أحمد، منح الرب الغفور في ذكر ما أهمله صاحب فتح الشكور، دراسة وتحقيق: د. محمد الأمين بن حمادي (موريتانيا خلال القرن التاسع عشر 1785-1908)، ليون، أنيس إديسيون ENS Editions، 2011.
- النحوي الخليل، بلاد شنقيط، المنارة .. والرباط، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

المراجع الإلكترونية

- ماء العينين الشيخ، قصيدة "إني مخاو لجميع الطرق أخوة"، منتديات شبكة الصوفية، صفحة انترنت عنوانها: http://soufies.net/showthread.php?p=2102، توجد فيها "قصيدة إني مخاو لجميع الطرق" لسيدي القطب العلامة ماء العينين رضى الله عنه. نشرها ناقلها في 14/02/2018.لا يوجد فيها ترقيم للصفحات.
- محمدن ولد امد، تاريخ موريتانيا الإيجابي (الشيخ محمد فاضل بن مامين) صحيفة نواكشوط، صفحة انترنت عنوانها: https://nouakchot.com/?core=content&id=1393. نشرها ناقلها عبر فيسبوك في 15/10/2015، لا يوجد فيها ترقيم للصفحات ولا تاريخ للصحيفة.
- Boubrik Rahal، *Itineraire du fondateur de la tariqa Fadiliyya*، https://sites.google.com/site/teimrevista/numeros/numero-11-julio-diciembre-2011/itineraire-de-foundateur-de-la-tariqa-fadiliyya.

المصادر والمراجع باللغة الفرنسية

- Boubrik، Rahal، *Saints et Société en Islam. La confrérie ouest-saharienne Fâdiliyya*، Paris، CNRS Editions، 1999.
- Dupont O.، Coppolani X.، *Les confréries religieuses musulmanes*، Alger، Jourdan، 1897.
- Marty، P.، *Etude sur l'islam et les tribus du Soudan (Les Kounta de l'Est- Les Berabich - Les Iguelland)* Tome 1، Volume XXXVII، Revue du monde musulman، Paris، Ernest Leroux، 1918-1919.

  L'islam maure (Cheikh Sidia - Les Fadelïa- Les Ida ou Ali، Paris، Ernest Leroux، 1916.